مجموعة قصصية



البعد المستبعد

كريم وهبه

البعد المستبعد

مجموعة قصصية

كريم وهبه

للتواصل:

- **البريد الإلكتروني: [kareem.wahba.of@gmail.com]**
- **فيسبوك: [www.facebook.com/Kareem.Wahba.KW]**
- **واتساب: [+201146510219]**

لترى ما تريد أن تراه.

المحتويات

فتاة القطار

كانت تشعر أنها عارية تمامًا من تأثير قوة نظراته التي تخترق جسدها، رفعت حقيبة ظهرها من الأرض واحتضنتها؛ لعلها تشتت انتباه عينيه المركزة على صدرها.

كان المكان من حولها مكتظاً بالناس، وكانت هي تلعن سوء حظها لأنها لم تلحق بتلك العربة التي يعلو بابها يافطة كتب عليها "للنساء فقط"، فقد أنهت عملها واتجهت إلى قطار الأنفاق، وجهتها التي اعتادتها دائماً، وإن لم تكن والدتها قد تحدثت إليها عبر الهاتف منذ قليل، لما كانت ولجت مسرعة إلى تلك العربة المختلطة.

لم تعرف من أين تجدها؛ من ذلك الرجل المحدق بجسدها، أم من مكالمة أمها التي بثت في نفسها الريبة؟ لقد حاولت أن تعاود الاتصال بها مرة أخرى، ولكنها لم تجب.

قطع تفكيرها حركةُ تغييرٍ أجريت على المقعد الذي تجلس عليه، فقد قام أحد الركاب على يسراها واحتل مكانه ذلك الرجل الذي كان يقف أمامها، تكورت بقدر ما تستطيع حتى تتفادى ملامسته، ولم يكن يطمئنها سوى تلك السيدة التي تجلس على جانبها الآخر، فراحت توجه جسدها ناحيتها لعلها تحتمي بها، وما كان من الرجل إلا أن اغتصب بجسده المساحة التي تركتها بينها وبينه.

الجو حار، رغم غروب الشمس وإحلال القمر مكانه بالسماء، رأت ذلك من النافذة التي تختفي وراء ذلك الجمع من الناس، لعلها خمنت أنها غربت بعد نظرة إلى ساعة هاتفها وهي تغلقه بعد يأس من إجابة أمها على هاتفها. امتدت يد ذلك الرجل

من خلف عنقها، ولكنها لم تلحظ ذلك إلا حينما اخترقت رائحة تعرق إبطه أنفها، نظرت إليه لتجد أنه أقلع عن نظراته، واكتفى بتحسس أطراف شعرها، وبيده الأخرى كان يداعب نفسه بهاتفه الجوال الذي كان يقربه من فخذيه، وفيما يبدو لها أنه كان على وضع الاهتزاز، فقد كانت شاشة هاتفه تضيء معلنة عن تلقي اتصال.

ذعرت الفتاة وهي تحاول أن تملص خصلات شعرها من بين أصبعيه، وتعالى صوتها بما يفعله، ولكنها لم تلقَ أي مساندة، ولم يكن له رد فعل سوى أن نعتها حرفياً بـــ "تلقيح جتت"، وأنزل يده من خلفها وقد قرر الانتقام.

نظرت الفتاة إلى الشباك من خلفها لعلها تكون وصلت إلى وجهتها، وقد استغل التفافها ليلمس جسدها بمرفقه، فعادت بصوت أعلى تطلب العون بلا مجيب.

قررت الفتاة في قرارة نفسها أن تنهض من مكانها، ولكن القدر كان يقف لها بالمرصاد، حيث وهي تنفذ ما استقرت عليه، توقف القطار فجأة، وما كان من ركابه سوى انتهاز تلك الفرصة، فتعددت الأيادي التي بالظاهر تساعدها على إعادة الوقوف، وبالباطن تحسس ما تريده من أعضاء جسدها.

انفجرت الفتاة بجميع مَن حولها، وقد لُوقي دفاعها عن نفسها بالمرصاد، فتعددت الردود بين: (أنا غلطان إني بساعد... فعلاً خير تعمل شر تلقى)، (إيه اللي ركبك عربية الرجالة)، (عندكم عربيات الحريم، سايبينها وجايين تتلزقوا فينا ومش عاجبكم) وغيرها الكثير من الردود.

أدركت الفتاة أنها معركة خاسرة، وانسحبت بصمت حين توقف القطار، لتواجه باب النزول. تصادف بأن تكون المحطة التي اختارتها هي نفسها التي نزل بها الرجل الذي انتهك حرمات جسدها، قررت المواجهة وليكن ما يكون.

تحركت الفتاة، وكان يتبعها، توقفت حيث عربات السيدات، فتوقف. التفتت له وقررت المواجهة، التف الناس من حولهم وهي تؤنبه على فعلته، ولكن ما أثار في نفسها الغيظ، عدم تصديق الناس لها، ونعتوها بالافتراء والتبلي، فشُحذ جسدها بطاقة أخرجتها بلطم الرجل على خده، فما كان منه إلا أن كال لها اللطمات تباعاً، ولم يتوقف إلا عند وصول أمن المحطة، الذين بدورهم أخذوا صف المعتدي، بعدما أُقر بذنبها بشهادة الشهود من حولها، وما فُرّغ من كاميرات المراقبة حولهم، ولم يُطلق سراحها إلا بعدما اعتذرت منه واستسمحته بالعفو عنها.

خرجت الفتاة من غرفة أمن المحطة محطمة، أكملت السير باتجاه القطار القادم، ولم تتوقف حتى سقطت بطوع أمرها على قضيب القطار، احتضنها القطار بقوة دفعتها للأمام وكأنما يواسيها على يومها السيئ، صعدت روحها للسماء، وهي تنظر إلى ذلك الرجل المتسبب بموتها، كانت نظراتها له حادة وكأنما هي تلعنه إلى ما آلت إليه.

تمت

نظرة مختلفة

عندما ترى شيئًا ما أمامك، تراه كما تريد أن تراه، ولكن تلك الرؤية تختلف تمامًا عن رؤيته.

وكان الشيء الذي رآه "هو" أن امرأته "هي" بين أحضان رجل غريب.

"هو" و"هي".

كان "هو" يرى الـ"و" التي تربط بينهما امتدادًا للـ"و" المرتبطة بالـ"هـ" خاصته.

إنما "هي" فقد كانت ترى أنهما "هـ" وأنه "هـ" مثل بعضهما تمامًا، والـ"و" خاصته أو الـ"ي" خاصتها لا تميز أحدهما على الآخر.

فإن كان هو "هو" فهي "هي"، وإن كان مصرًا على كلامه، فيمكنه أن يزيل الـ"و" التي تربط بينهما ليعود "هو" فقط كما كان سابقًا.

لم يعجبه هذا الكلام.

احتد عند سماعه، وتحول هذا الاحتداد بعد لحظات إلى وقفة حداد.

ولم يكونا بتلك الوقفة يرثيان أحدًا إلا علاقتهما التي حتى وإن لم تنتهِ الآن بشكل قاطع، إلا أن هناك قطعًا عميقًا حلّ عليها.

فصارت "هي" وصار "هو" منفصلين، والـ"و" التي جمعتهما كانت سببًا في تفرقهما.

طلبت الطلاق.

رفض الطلاق وعلّق بأنه سيتركها معلقة.

أعلمته أن هذا لن يمنعها.

لم يبادلها الإجابة، اكتفى بتكسير كل ما يعترض طريق خروجه.

ترك المنزل لعدة أيام، وعندما عاد، رأى "هو" ما رآه.

ورأت "هي" على وجهه ما كانت تريد أن تراه.

فهل أنت الآن ترى ما تريد أن تراه، أم ترى رؤيته؟

تمت

طُعم

أخبره صديقُه أنها صعبةُ المنال، فرد عليه بأنه لا شيء يستعصي على الأيام؛ فالحديد يلين بالطرق، وهو لن يكفَّ عن هذا الطرق حتى تلين له.

بدأ ينصب شباكه، ويرمي لها الطَّعم بلا كللٍ أو ملل، فهو صيادٌ اعتاد هذا البحر، وله باعٌ، ولديه الصبر.

كانت مواقع التواصل الاجتماعي هي المجال، وظل يراقب الفريسة يومًا بعد يوم، يرمي لها الطَّعم ولكنه لا يسحب الخيط إلا فارغًا، حتى ألفت السمكة هذا الطعام المجاني، وزال الوجس والحيطة، واعتبرته شيئًا مُسلَّمًا به. وهذا هو ما أراده بالتحديد: أن يعطيها الأمان ويكسب ثقتها بقدر الإمكان.

راود فريسته بالحب والغرام، رفضته، لكنها لم تُغلق الباب في وجهه، تركته مواربًا بشكل ما، ففي قرارة نفسها — ربما لا تدرك ذلك بعد — قد تعلقت به وألفت وجوده، وما أدراك بما هو أمر من السحر.

لم يفرض نفسه، ولكنه كرر طلبه، ثم ابتعد عنها، فحَنَّت إليه.

هل هذا هو الحب؟ سألت نفسها. ومرت الأيام، وازداد اشتياقها، فبحثت عنه في هذا الفضاء الواسع، ولكنه قابلها بالجفاف، انقلبت الموازين.

هي تحاول الاقتراب، وهو يتصنع الابتعاد، اعتذرت له عن جفافها السابق، ولفَّق الخطاف أخيرًا وسحب الفريسة.

في البداية، كانت أحلامها تتحقق قبل أن تأتي على بالها، وكل حركة مدروسة، والسموم في العسل مدسوسة، وهل يخفى شيء على شباك العصر الحديث؟

يوم يَأتي بما يليه، وهو يحقق لها كل ما تمليه، وتصنع أنه بلا حول ولا دخل، وإنه في إطار البحث عما يشد أزره، حتى يجهز لها المنزل والمتاع.

كل شيء يمشي كما أراد، فهي ليست الأولى، ولا حتى العاشرة، فهو قد توقف عن العد منذ زمن طويل.

بدأ حديثه معها يأخذ منحنى تدريجيًا، خطوة صغيرة كل مرة: اليوم يريد رؤية صورتها بالزي الجديد، غدًا يرغب برؤية زي آخر، بعد غد يرغب بما هو أبعد من هذا وذاك. استمر الحال على هذا المنوال لشهور، تتخفف شيئًا فشيئًا من هذه الأسمال، حتى في الأخير أوجدها كما وُلدت، وتحول الحديث فيما بينهما إلى شهوة خالصة، وقد انقطعت عنها البصيرة تمامًا، فالحب كما يقولون أعمى، وليس على الأعمى حرج.

رغب بها خارج هذا الفضاء، أعجبته قسماتها، واستلذ عودها، وطلب اللقاء، بينهما مسافة كبيرة، ولكنه سيقطعها في سبيلها، سوف يقترب منها قدر الإمكان، وكان اللقاء في مكان عام.

لم تألفه على أرض الواقع، شعرت بالاغتراب، وجدت في عينيه نظرات مختلفة عما رأته من خلف الشاشات، لم يختفِ سحره، ولكن شعورًا غريبًا راودها تجاهه. ربما يعود هذا إلى قسمات وجهه التي تخبرها أنه حتمًا أكبر سنًا مما أخبرها به، ولكن كلامه المعسول قطع هذا التفكير.

كان يرغب بأكثر من مجرد لقاء، لم تسمح له طبيعة المكان سوى ببعض اللمسات البريئة ظاهريًا، التي لم تزده سوى اشتعالًا. وكانت هي تطلب منه التوقف خشية

الناس، وحينما لم تستطع منعه همَّت بالانصراف، ولكنه كان في ذيلها، واعتذر عما بدر منه، وتحجج بجمالها الذي لا يُقاوم، فقد رأى البضاعة، وهو خير من يثمنها.

كانت تمشي متوجسة، تختبئ من وجوه المارة، وتتحاشى ركاب السيارات، فالمكان الذي اختارته، حتى وإن كان جديدًا عليها وبعيد نسبيًا عنها، إلا أن الاحتمالات لا تنقطع من رؤية شخص قريب. كانت هذه المقابلة قرارًا خاطئًا، وأقرت بذلك.

قطع شرودها لمسه، وقعت أسفل ظهرها، انتفض لها بدنها، فهي لم تتوقعها على الإطلاق، توقفت مكانها، ونظرت له بذهول، وبصوت عالٍ أعربت: هل أنت مهبول؟

لم يتوقع منها ردَّة الفعل هذه، فهي قد سلَّمت له مسبقًا، فلماذا تتصنع الاستعصاء عليه الآن؟ لم يرَ الأمر من وجهة نظرها أنهما بالشارع، أو على الأحرى لم يهتم، فهو غريب عن هذا المكان، والبلد التي لا يعرفك بها أحد لا تستحي فيها، وافعل ما شئت.

وقد شاء في هذا الوقت أن يكون معها، لا يستطيع كبح مشاعره أكثر من هذا، فهو لم يأتِ كل هذه المسافة ليعود خالي الوفاض.

لم تصدق كيف استطاع أن ينطق بهذا الكلام، هل تسمع في صوته نبرة تهديد؟ كيف يجرؤ؟

ارحل، لا أريد أن أراك مرة أخرى.

قالتها له، فلم يرد عليها، لكنه أيضًا لم يتحرك. وقف يبتسم، وأخرج هاتفه، وعرض عليها مقتنياته الثمينة، وأخبرها أنه إذا لم تحقق له ما أراد فسوف يصل هذا كله إلى ما هو أبعد من المراد.

في تلك اللحظة، أدركت أن ما كان يمنحها الأمان من خلف الشاشة، صار قيدًا يصعد ببطء من معصمها إلى عنقها.

كيف تنجو؟ بمن تستنجد؟ ألا يحبها؟ هل كانت مخدوعة كل هذا الوقت؟ كيف سوَّلت لها نفسها القيام بمثل هذا الفعل؟ أخذ جسدها يرتعش لهول ما فكرت فيه، وهو تدريجيًا يفرج عن أساريره، يشعر أنه انتصر.

شاطت مشاعرها بالغضب، حتى وإن لم يتصاعد البخار الساخن من أذنيها. أخطأت، لكنها تنوي تصحيح هذا الخطأ، لن تكون ضحية لهذا الابتزاز.

تركته يُكمل تهديداته، وهي تتحين الفرصة المناسبة. كانت تعبيراتها جامدة، لم يستطع قراءتها، لكنه ظل يلوح لها بهاتفه المفتوح، يلوّح به، لعلها تُسرع من رضوخها. لجأ إلى مثل هذا التهديد عدة مرات وقد أتى ثماره.

فجأة، قفزت رسالةٌ على الشاشة من صديقه يقول: «هل نَشِبَ الخطافُ بها؟»، لمحتّها وفهمتها، وأدركت في لمحةٍ أنها لم تكن سوى طُعمٍ في رهانٍ رخيص.

لم يكن يدرك أن الجرة لا تسلم من السقوط في كل مرة، وأثر دفعة مباغتة جاءته من قُبلها، انقلب السحر على الساحر، ولم ينجُ من اندفاع الحافلة، حتى وإن لم تكن مسرعة بما يكفي لتقضي عليه، إلا أنها لم تهتم لتتأكد من ذلك، فقط أخذت هاتفه من الأرض وهمّت بالجري، وظلت تجري... تجري... والدموع من عينيها تنهمر بلا مؤشر على التوقف.

تمت

دوران

كان الهدوء يخيم على رأسه بعد عمل يوم شاق قد انتهى دوامه، والساعة الآن العاشرة صباحًا، وها هو يُقبل الآن في مراسم النوم.

كم يبغض هذا العمل الذي جعله يناقض بـ "مواعيده" الطبيعة التي وجد البشر عليها؛ فصار ليله معاشًا وصباحه لباسًا. ولكن ما باليد حيلة، فلم يلقَ قبولًا في غير هذه الوظيفة حتى الآن.

يريد أن يتركها ويبحث عن غيرها كما فعل مرات عديدة في السابق، ولكن لا مجال للمغامرة بحياته الآن، بعد أن مرت سنوات عديدة منها، فهو بالأمس قد أتم العام الخامس في العقد الرابع من حياته، ولو حدث وغادر العمل لن يستطيع أن يعود إليه مجددًا لحكم سنه.

كان في السابق يظن أنه بعدما ينتهي من دراسته الجامعية ستتغير حياته، وستتوالى الفرص عليه للعمل، ولكنه اكتشف بعد مرور عام دراسي واحد فقط أنه كان مخطئًا، وتأكد أنه بلا شك سيلحق بمن سبقوه على المقاهي، فتمكن منه الكسل وسيطر عليه حتى أصبح على أرض الواقع عاطلًا.

ظل يماطل على هذا المنوال حتى خمس سنوات مضت، وكأن السنوات تمضي في دائرة مغلقة لا مخرج منها.

هو الآن على سريره، يغط في نوم عميق، كمن يغرق في بحر من السكون، سيستيقظ منه على دقات المنبه الحديدي الموضوع بجانبه. سيستيقظ حتمًا مجبرًا، وهو يلعنه ثم يستسلم في النهاية لأنه استنفد جميع إجازاته في الشهرين الأولين من هذا العام، وما زال هناك أربعة أيام على عطلته الأسبوعية.

سيسأل نفسه: هل يستطيع أن يكتفي بيوم واحد كل أسبوع طوال الأشهر الخمسة القادمة، أم أنه سيستسلم تاركًا العمل، كمن يهرب من مواجهة لا يعرف كيف يواجهها؟ ولكنه سيجد نفسه في النهاية مترددًا، كما يحدث دائمًا.

كانت تلك هي عادته، يسأل نفسه عن القرارات التي لم يتخذها، ويتمنى لو كان بمقدوره العودة إلى الوراء ليغير مسار حياته. ولكن، كلما كانت الشمس تغيب، كانت أفكاره تتشابك أكثر، وتغرق في تفاصيل لا نهاية لها، لتتحول في النهاية إلى شبح من الأسئلة، التي تطارده بلا هوادة.

وفي تلك اللحظات التي يختلط فيها النوم باليقظة، يتسلل إليه شعور غريب، كما لو أنه في زاوية مظلمة من الوجود، لا يستطيع الهروب منها. هل الحياة فعلاً هي مجرد سلسلة من القرارات الخاطئة التي نعيشها كل يوم؟ هل كان يجب أن يختار طريقًا آخر في الماضي، أم أن هذا هو مسار حياته الذي لا مفر منه؟

فجأة، قطع المنبه الحديدي فكرته الجارحة، ودوت دقاته في أذنه كالعقاب. أغمض عينيه للحظة، لكنه كان يعلم تمامًا أن استسلامه للنوم لم يعد مجديًا. عليه النهوض الآن، وبدون تأخير، فالعالم في انتظاره. وكما هي العادة، سيبدأ اليوم بمثل هذا التردد، وسيظل يعيد نفس الأسلة دون أن يمل.

استفاق من نومه وهو يشعر بثقل في قلبه، وكأن الدنيا بأسرها قد وضعت على كاهله وما يدفعه هو التزامه بالحياة التي اختارها لنفسه، حتى وإن كانت مليئة بالندم.

هو الآن في منتصف الطريق، لا يستطيع العودة إلى الوراء، وكل ما عليه فعله هو المضي قدمًا، حتى وإن كانت خطواته تتخبط في الظلام.

تمت

خطوة أولى

لأجل الورد يُسقى العليق، هو مقتنع بهذا ولكنه كان في حيرة من أمره، أيهما الورد وأيهما العليق؟ إنه يدرك أن لديه الموهبة، ويحمد خالقه دومًا على هذه الهبة، ولكنه كان ساخطًا من سبل منغلقة أمامه، والسبب حتى وإن كان مقنعًا لم يسبب له سوى السخط.

لم يكن سعيدًا بما ساقته ظروفه إليه، ولكن حصل ما حصل، فما عليه الآن سوى أن يخط طريقه بنفسه، فهو الآن بعمر يسمح له أن يكون هو صاحب قراره، وقد قرر أن يأخذ المبادرة في تقدمه للالتحاق بأحد معاهد الفنون الكبرى في دولته، وكانت أسبابه ودوافعه غير كفيلة بإقناعه أن تلك خطوة سديدة؛ هو يرى أن الدراسة ستصقل موهبته وتطورها، ولكنه يخشى أن تحد تلك الدراسة من إبداعاته وتلجمها، يخشى الرتابة والروتين اللذين إذا حلّا على شيء ما أفقداه لذته.

في صباح يوم حار أمام بوابة كان يقف، وصلت إشارة من عقله لتنبهه باحتراق أنامله جراء عقب سيجارة قد نسي تمامًا متى أشعلها، استجاب لتلك الإشارة برمي العقب المشتعل، ووضع إصبعيه في فمه ترطيبًا لهما، وباليد الأخرى يخرج سيجارة أخرى ويشعلها، وما زال ينتظر في قطار من لحم ودم.

فلان بن فلان.

كان هذا اسمه الذي نطق به حاجب على البوابة منظمًا لدخول المتقدمين.

حان دوري.

قالها لنفسه وهو يتحرك باتجاه ما أشارت له يد هذا الحاجب، سبقته عيناه إلى هناك، فتوقفت قدماه، وتعالت من شفتيه اللعنات، وأكمل قائلاً:

طابور آخر!

أوقفت كلماته أحد المارة بالداخل وقال له:

وليس الأخير.

تجاهله تمامًا وتقدم إلى وجهته وأخذ مكانه بالصف، ومر الوقت وحصل في آخر الأمر على ملف من الأوراق، أخذه وراح يجلس على إحدى درجات سلم ما، وقد كان هناك سؤال يشغله: هل أخذ الملف بيمناه أم بيسراه؟

أتم خطوته الأولى وحصل على ملف التقديم، ولكن كان في قرارة نفسه يخشى أن يكمل ما بدأ، وقد زادت الأسباب وتولدت وبدأت تطفو على سطح عقله، فكان في شرود تام، وفقد إحساسه بالوقت، وبدأ يشعر بثقل في عينيه واستند بظهره إلى حائط على يساره ونام.

يا أنت يا غلام، يا فلان بن فلان.

نظر له متعجبًا شديد العجب، وقال:

أنت! كيف؟ متى نبت لك فم وعينان وأذنان؟

فأكمل الملف حديثه:

أعطني ما أنا كفيل به من احترام.

أخذ يفرك عينيه ويحدث نفسه بأنه ولا بد قد فقد من عقله اللجام، وهو ينظر إلى كل ما حوله وكيف نمت للجمادات أفواه، وأعين، وآذان، وزادت أخرى عنها بأيدٍ وأقدام.

كيف وصلت إلى هذا المكان؟

قاطعه الملف وقال:

ليس الوقت في صالحنا الآن، عليك بالإسراع وتقديمي للإدارة يا فلان.

هب الشاب واقفًا وكان بقدم للخلف وقدم للأمام:

مهلاً، مهلاً.

كان الشاب، فرد عليه:

وماذا الآن؟

كان يريد أن يقدم الملف، لأن الملف يريد أن يُقدم، ولكن "ن" الجماعة حين رنت في أذنيه، كانت كفيلة بأن توقف إياه، ليعيد التفكير وتسكن قدماه.

ثار ملفه وقد تحداه ونعته بالمتخاذل ولطم خديه، تعصب الشاب واحمرت وجنتاه، وأمسك بالملف ليقطع إياه.

لا، اسمعني أرجوك، توقف.

ماذا تريد؟

فأكمل الملف:

توقف، ولنتحدث، لماذا لا تريد التقدم؟ ولِمَ التردد؟ هل تخشى أن نتقدم وبالاختبارات تفشل؟

فرد عليه ضاحكًا:

أفشل! أنا أفشل!

فأكمل ملفه:

أنت خائف إذًا، واضح عليك خوفك، لا تتكبر وأخبرني مما تخاف؟

صمت قليلاً وأخبره:

صدقاً، أخاف أن أضيع سنين من عمري أكثر مما قد ضاعت سلفًا، أخاف أن يكون بالداخل مختلفًا، فأكره بعدها أن أكتب حرفًا.

أنشد الملف وهو يرقص حوله:

(لا تخف يا صديقي، فأنت مخطئ، بالداخل أم بالخارج كنت فأنت كاتب مخلص، لا تخشَ ضياع وقتك، فأنت بوقتك تستثمر في نفسك، والعمر.. العمر.. العمر لا يضيع.. أبدًا لا يضيع، فأنت تحسن ما تفعل، وهيا.. هيا.. هيا ندخل سويًا، وبالتفاؤل سنلقى القبول.. سنلقى القبول).

يا سيدي، يا أستاذ، استيقظ.

فتح عينيه وتمطَّى للحظات وهو يتثاءب، فأكمل الحاجب:

لقد غفوت لمدة طويلة، ولم أكن أنوي إيقاظك، ولكن كما ترى لقد حل الظلام، فأرجوك أن تتفضل حتى يتسنى لنا إغلاق الأبواب.

فرد عليه بذعر:

الملف، أريد تقديم الملف، هل أغلقوا؟ ماذا أفعل الآن؟

قاطعه قائلاً:

لا تقلق ما زال التقديم ساريًا، أقبل بالغد بعدما تملأ بياناتك بالملف وسلمه هنا بهذا الرواق.

أومأ مبتسماً وقال:

شكراً لك على كل حال.

غادر بالمساء وعاد بالصباح، وفي يده يمسك الملف وبعض الأوراق وتقدم بدوره في طابور جديد، حتى وأخيراً وصل للرواق، حيث يقدمون الملفات والأوراق حتى يخضعوا بعدها للاختبارات، قدّم بالخلف وقدم للأمام، ماذا سيفعل سنرى الآن، بكل ما في عقله استعان، وهو يتراجع ويعود مرة أخرى فيتقدم للأمام، أدرك الآن، فقط الآن، أنها أسهل مما كان يعتقد، وعليه الآن أن يستعد فلا شيء في هذه الحياة، كما يعلم، بالمجان.

تمت

فراش مشتعل

استيقظت الفتاة مذعورة، ماذا حدث وأين هي الآن وكيف وصلت لهذا المكان، كل ما تذكره كان: وجودها في سيارة صديقتها في طريقهما إلى مسابقة الغناء، وكانت فرحتها تصل إلى عنان السماء، وأعطتها صديقتها بعض الإكسسوارات في الطريق، وزودتها بعطر له رائحة الرحيق، لكنها الآن كانت عارية ممددة على السرير الغريب، جاهدت للوقوف وشعرت بانتهاك حلّ بجسدها، فأخذت تكيل اللطمات على وجهها، ولم تصدق ما حل بها، أدركت أنه ليس كابوسًا، بل واقع أليم ملموس.

كانت هذه الفتاة تعيش في كَبْتٍ دائم، وزاد أثره عليها بعدما ألحقوها بالتعليم الصناعي رغمًا عنها، وأخبرها أبوها أن الدبلوم سيكون نهاية محطتها التعليمية. كانت مجتهدة في مدرستها الإعدادية، حتى إنها كانت من المُكَرَّمين بنهاية العام الدراسي، ولكن ربّ المنزل يرى أن الفتاة بالنهاية ستؤول إلى بيت زوجها، فما من ضرورة للثانوي العام المكلف - رغم اقتداره - طالما أنه قرر لها أن تحصل على تعليم متوسط. كان سيكتفي بالإعدادية، إلا أن التعليم المتوسط يرفع سعرها بسوق الرجال، والمدرسة الصناعية قريبة من المنزل بكل حال.

كان أبوها رجلًا متدينًا بشهادة كل من حوله، لا يترك فرضًا إلا ويؤديه في جماعة، ولا يخرج من المسجد إلا بعدما يصافح كل الرجال في مرمى بصره. ورغم كونه مدمنًا لإحدى الأعشاب المخدرة، إلا إنها لم تمنعه يومًا من صلاة الفجر في جماعة. يدرك في قرارة نفسه أن صلاته تمحو سيئاته، فطالما هو يجمع بينهما فلا ضرر ولا ضرار. ثم إنها مصدر تنفيسه الوحيد للسوق ومراره، فالتجارة ليست دائمًا رابحة،

والأعشاب تهدئه من هول الخسارة. لم يرَ يومًا ضررًا بالتحايل في البيع والشراء، فالتجارة شطارة، والتحايل يعوّض الخسارة.

لم تكن أمها تمانع كل ذلك، فالرجل كسيب، وطالما جيبه مليء بالنقود فهو خالٍ من العيوب، حتى وإن لم تسلم من نوبات غضبه المتكررة التي تركت بعض الآثار على جسدها، ولكنها تزول. حتى وإن كانت الآثار متجددة والنوبات متكررة الحدوث، ولكنه رجل، والرجل له حقه أن يغضب. هكذا لقَّنتها أمها. وقد وجدته وأبقته مع الصبيان من أبنائها، فكانوا ينفّسون عن غضبهم على أختهم، ولا ضير في ذلك، فهذا خير تدريب لما هو مقدر له مستقبلًا بالحصول، فهي بالضرورة إلى رجلٍ ما سوف تؤول، والرجال يغضبون.

بحثت الفتاة بجدٍّ في مدرستها الحالية عن معلمة تضاهي تلك المعلمة التي أحبتها في الإعدادية، لكنها لم تجد من يقاربها. تفتقد كثيرًا إلى الاهتمام الذي صبّته عليها هذه المعلمة في فترة مكوثها القصيرة بالمدرسة، فالمدير لم يرَها ذات نفع في مدرسته، فلا أهمية لمادة الموسيقى في مدرسة لا تحتوي آلات موسيقية. أخبرتها هذه المعلمة ذات مرة أن صوتها عذب، ولها مستقبل بالغناء، ولكن والدها أكد لها أن الغناء كالموسيقى حرام، وهي من مزامير الشيطان، وأن عليها بدلًا من هذا الهراء بقراءة القرآن.

مرت الأيام عليها بطيئة في هذه المدرسة الكئيبة، لم تهتم فيها أن تتقرب من زميلاتها، رغم محاولتهن، إلا أنها لم تسلم من علاقة سطحية تطورت مع إحدى الفتيات التي كانت تزاملها بالمدرسة السابقة. لم تكن هذه الفتاة متفوقة مثلما كان أصدقاؤها الذين التحقوا جميعهم بالثانوي العام، وقد قُدِّر لها أن تكون هنا بسبب المجموع. فرضت صداقتها عليها فرضًا، ولها في قرارة نفسها مآربُ أخرى، فهي بالنسبة إليها ليست سوى تذكرة للمرور إلى التعليم العالي، الذي يحتاج إلى مجموع.

أدركت فتاتنا هذا ولم تمانع في مساعدتها ودعتها للمذاكرة، ولكنها لم ترغب بزَرع البذور، هي تريد فقط أن تحصد المحصول. وأغرتها بأنها إن نفذت لها ما تقول، والتحقت بالفعل بالبكالوريوس، فسوف تساعدها في توصيل صوتها الجميل إلى من سيكتشفها، والأكيد أنه بالوصول كل معارضات أبوها ستزول. وأقنعتها بحنكتها ودهائها، وأقسمت لها أن هذا ما سيقدره لها الله بالحصول.

كان أبوها رافضًا في هذا الوقت أن يستمع إلى كلام زوجته ويترك باب فتاته مواربًا للعرسان، وفضّل أن يُبقي الباب مغلقًا، فالدبلوم له زبونه المضمون. مرت الثلاث سنوات على الفتاة، وحصلت على مجموع متوسط، فقد كانت في كل الامتحانات تضحّي بورقة إجابتها الممتلئة، وتبادلها مع ورقة صديقتها الفارغة، وتشرع في ملئها خلال ما تبقى من وقت عقد الامتحان. لم يسعفها الوقت دائمًا، ورسبت فيه إحدى المرات لما احتوته لوحة صديقتها من أخطاء، ولكن لا يهم، فأبوها بكل حال لن يجود عليها بأعلى من هذا التعليم، حتى وإن لم تصدُق صديقتها، فلن يفيدها المجموع في شيء.

فتح الأب الباب، وأخذ يفرز المتقدمين، فالفتاة جميلة ولها العديد من المريدين، ومعيار القيمة لديه هو المال. فالرجل لا يُقيَّم بالسن أو الجمال، فالمال هو الذي يزن الرجل ويُعلي من شأنه ويُزكّيه. والمهر المطلوب مرتفع، ومن أراد الفتاة يدفع له خلوها، فيعطيه حسنها وجمالها.

مرت فترة على هذا المزاد المفتوح، والمهر في صعود ليوازي سعر الذهب بالسوق، وخلال هذه الفترة كانت صديقة الفتاة قد حققت ما كانت ترجوه، وربحت هديتها الموعودة، سيارتها الجديدة، كما وعدها بها والدها المغترب. فكانت شروط الرهان تقضي أن تحقق النجاح من المدرسة الصناعية، وليس من الثانوية الخصوصية. واغترّت بنفسها وضربت بعرض الحائط المحاضرات، واستعاضت عنها بالخروجات

والسهرات، ومرّ الوقت وحان أوان الامتحانات، وعليها بالتفوق لاستمرار الهدايا والنَّفَحات، والضحية الآن هو شاب، ولكنها لم تدرك أنها الفريسة وهو الصياد، فهو بالفعل يحقق لها المُراد، ولكنه يأخذ منها بالمقابل كل ما أراد.

سعيد الحظ، ثقيل الجيب، جلس مع الأب يقرأ الفاتحة، والفتاة في الداخل تندب حظها، فلم يلقَ هذا الزبون حسنها، فبينهما فارق في السن أكبر من الفارق الذي بين أبيها وأمها، ونظراته لها كانت تخيفها. ضرعت إلى ربها أن يردّ عنها هذا الكابوس، ولكن حدث ما قُدِّر له بالحدوث، وتم تحديد كتب الكتّاب بعد شهرين وتأكيد الميعاد. وكان عريسها فرحًا منتظرًا زوجته الثانية الجديدة، التي ستأتيه بالولد الذي سيدير من بعده وكالة الحديد العريقة.

كان أبوها وأُخواتها خلال هذا الوقت يشترون جهازها المطلوب، وكانت الأم فرحة بهذا العريس الخالي من العيوب، وكانت الفتاة على أمرها مغلوبة.

مرَّ شهر وبقي مثله، وقد فكرت الفتاة خلاله بالهروب، ولكنها أرجأت الفكرة عن بالها، فليس لها ملجأ ولا تعلم لمن وإلى أين يمكن أن تذهب. سألت نفسها: لماذا ميزها الله بهذا الوعي دونًا عن غيرها؟ لماذا لم تصبح خاضعة كأمها؟ فكرت مرارًا أيضًا بحلمها، كل هذا بلا جدوى الآن، فالتفكير وحده لن يحدث أي تغير.

لم تشارك أمها في انتقاء الملابس والمفروشات، وأعربت عمّا بداخلها لأمها برفضها لزواجها، ولكنها لم تحقق بشكواها مناقشات. بل وصل الأمر إلى أبيها ولم يمر مرور الكرام، فتلقى جسدها الرد واشتعل به الألم لعدة أيام، وصدح صوتها ليس بالغناء العذب، بل بالآهات والأنات.

تبدل حال صديقتها واستسلمت بالكامل لذلك الشاب، فقد راودها بالحب وبمرور الوقت قلبها لكلامه ذاب، وأخذ منها مراده وساكنها فترة، ولكنه ملَّ منها فابتعد

عنها، وأخلف وعده بالزواج. ولكي يثنيها عن التهديدات، أظهر عليها بعض الصور والتسجيلات، أمدته منها بدخلٍ جارٍ. ولكن ما يأتيها من أبيها لا يكفيها ويكفيه، فساومته على مصدره من الابتزازات مقابل أن تأتيه بحسنة الحسناوات.

تلك الفتاة، ستغريها بالحلم الذي وعدتها به أيام الدراسة بلا تأكيد، طُعم مناسب. فهو بالنسبة للفتاة حلم، وبالنسبة لها مجرد أداة للوصول إلى مرادها، فإن أتى الطوفان، لا ينجو إلا من جعل غيره تحت قدميه، فما بالك بحلم الفتاة، هذه الفتاة التي لم تكن لها يومًا أكثر من أداة. وهل في هذا الزمان يُجازى الإحسان بالإحسان؟

في تلك الليلة، حين مرّ العريس أمامها بنظرته الثقيلة، أدركت أن ما ينتظرها ليس زواجًا بل سجنًا مؤبدًا. شعرت أن الهواء يضيق في صدرها، وأن البقاء لم يعد احتمالًا، لم تصدُق فتاتنا نفسها بعد أن جاءتها صديقتها بالخلاص، أخيرًا ستحقق حلمها وستغني ويعرفها الناس، وأهم من الحلم هو زوال - الزواج - الهم، ولكن لماذا تذكرتها الآن؟ لم تدع نفسها تقع ضحية للتفكير، تمنَّتها ونالتها، ستهرب معها بالتأكيد، لن يمنعها شيء ولو كانت مكبلة بالحديد، فلم يبقَ على كتب الكتّاب سوى يومان، لن تجد فرصة مناسبة أفضل من الآن.

استقرت الفتاتان على أن تتقابلا في المساء، ويذهبا معًا إلى مسابقة الغناء، والسيارة ستكون بالأسفل مباشرة وقت صلاة العشاء، فأبوها وأخوتها لن يكونوا موجودين، وأمها لن تدرك خروجها إلا بعد فوات الأوان.

أما الآن وإلا فلا، هكذا قالت فتاتنا لنفسها: لن تستطيع الذهاب بطريق مشروع، وما سيعود عليها من معرفة والدها لن يكون أسوأ مما هو على مشارف الحدوث.

لكن عشاء الفرار، لم يكن سوى خداع واستدراج لدار البوار، وفخ نُصِب لها بإحكام خلف الأستار.

تتجه الفتاة الآن إلى باب الغرفة مذعورة، بعدما التحفت بملاءة السرير، فتحت الباب ببطء شديد، لتجد صديقتها والشاب يجلسان يتآمران ويضحكان، بعد أن أفرغ ما بجعبته من تسجيلات وصور تخصها، أتعاب استمتاعه بالحسناء. ثار جنون فتاتنا، وهبت عليهما بغضب جام، ولكن الشاب وقف لها بالمرصاد بمجرد فتحها للباب، واضطر لكي يهدئ وتيرة غضبها ويخفض صوتها، أن كتم منافذ هوائها وأفقدها وعيها.

أدرك الشاب من ردة فعلها أنها لن تبوء له بالخضوع، فأسرَّ لشريكته بالجريمة بأن تعيدها إلى حيها، وهي بالتأكيد لن تسبب لها ضررًا. وأردف مستنكرًا: «اتفضح الفتاة نفسها؟!»، ولكنه قبل أن ينفذ المقترح قرر أن يخوض جولة أخرى معها، وفتح زجاجة خمر جديدة لهذه المناسبة السعيدة. شعرت الصديقة بالغيرة من تعلقه بالفتاة، وبما أنها قد خلصت نفسها من شركه فلم تُبدِ سوى اللامبالاة، ولكنها قد أحكمت خطة للانتقام، وقد نسجتها بكل إتقان.

لم تكن هذه أول مرة تفكر فيها بالخراب لكلٍّ أخير، فقد تعلّمت مبكرًا أن النجاة لا تكون إلا بترك غيرك في الحفرة، عادت الصديقة إلى حيِّ الفتاة وحيدة، وبيت الفتاة رأسٌ على عقب كان، والأب والإخوة في الشوارع يجوبون، ورغم رفع أذان الفجر ما زالوا عن فتاتهم يبحثون. يا ترى أين ستكون؟ ولم يكونوا يبحثون بمفردهم، فأهل الحي في المصائب يتآزرون، ليرضوا فضولهم في المقام الأول، ها هم مع الأهل يبحثون ويسألون ويتغامزون ويتنابذون.

لم ترد الصديقة في حيز الاتهام أن تكون، لذلك همست لغلامٍ صغير يقف مع الناس في الشارع، مع أن مكانه الطبيعي الآن في السرير، لكنها لم تهتم لتصل إلى هذا التفسير، فقط أعطته ورقة مطوية، كتبت بها عنوان وجود الضحية، وأشارت على

والد الفتاة ليوصلها له، وحرصت أن تبقى متوارية، ورحلت من هناك بكل سرعة وسرية.

فبعد أن أفرغت معظم محتوى العطر المخدر على الشاب، جهدت لتضعه في السرير عاريًا بجانب الفتاة، ولم تنسَ نصيبها - أي الفتاة - فأكملت إفراغ ما تبقى من عطرها لها. وأخذت حاجيتها وهمّت بالنزول، وقد تركت باب منزل الشاب مواربًا، ليس مغلقًا وليس مفتوحًا.

فضّ الأب الورقة وساعده أحد أولاده في قراءة المكتوب، وتحركوا في برهة إلى العنوان المطلوب وهم متشككون أنه ملعوب.

دفع الأب الباب بيديه، فانفتح على مصراعيه، تحرك للداخل وأبناؤه في ظهره يمشون، وبأيديهم قبل أعينهم كانوا يحثون، وتعثر الأب في قنينة الخمر، فالإضاءة معدومة إلا من بصيص هناك، يخرج من عقب ذلك الباب.

فتحوا الباب ولم يصدقوا هول ما رأوه؛ فتاتهم عارية في السرير مع رجل غريب، يا للعار المرير.

اختلف الأخ مع أخيه، فيما منهما يقتل الشاب، ومن منهما يقتل الفتاة. وقال الأب: لن أعطيها الفرصة لتستيقظ وتتوب، سوف أحرقها حيّة وهي غارقة في الذنوب.

عاد للخلف وأولاده عليه ينظرون، التقط قنينة الخمر، وهم لما هم مُقدمون عليه منتشين. أفرغ الأب على أجسادهما المشروب، ولم يسأل نفسه للحظة: لماذا لم يستيقظا؟

لم يُعطِ الأب لنفسه فرصة للتفكير، فالعار عنده لا ينتظر توضيحًا أو تفسيرًا، والخطيئة لا تحتاج دليلًا. وكان يرى النار تطهيرًا.

بعود ثقاب دبت النار بالفراش، تراجعوا للخلف ثلاثتهم لمسافة آمنة ليشاهدوا. استيقظ الشاب والفتاة وهما يحترقان، وأثر النار كانا يتلوان ويصرخان.

أغلق الأب الباب مانعًا الشاب من الخروج، أما الفتاة فلم تحاول أن تهرب مما هو عليها مكتوب، وأخذت روحها الطاهرة تنسل من دنياها الدنسة في سلام. زال الكبت، وشعرت أخيرًا بالحرية والهدوء.

تمت

غفوة

فتح عينيه وكان يتأمل المكان من حوله، لا يدري كم من الوقت قد غاب عن وعيه. كل ما يتذكره أنه خرج من منزله هذا الصباح، وها هي النجوم تتلألأ في السماء الآن. من مكان قريب، سمع صوتًا رخيمًا وهو يقيم الصلاة.

أي صلاة هذه في هذا الوقت؟ كان يسأل نفسه، أهي العشاء أم الفجر؟ تدارك أنها ليست الفجر، فمحال الطعام ما زالت مفتوحة إلى الآن.

تعجب من الضجيج حوله؛ عامل المقهى آثر أن يرفع من صوت الأغاني فوق الاحتمال؛ ليجابه مكبر صوت المسجد القريب الذى يأتي منه آيات الصلاة المرتلة. الكل يتسابق في الصراخ عبر مكبرات الصوت، وتداخلت الأصوات في أذنه حتى لم يعد يميز شيئاً. هل فقد الجميع احترام السكون؟ أم أن هذا الإزعاج صار هو الطبيعي وما عداه هو الغريب؟

نهض من مكانه على الأرض، ولم تسعفه إحدى قدميه. يبدو أن أحدًا ما قد خطا عليها منذ قليل وهو في رقدته هذه على الرصيف.

"أوه، ما كل هذه القمامة الملقاة على الأرض؟ ألم يعد أحد يهتم بالنظافة؟ إن النظافة من الإيمان، ألم يعد هناك مؤمنون؟"، والناس من حوله يمرون، لا أحد منهم مهتم بمساعدته على النهوض.

عاودته الأسئلة مرة أخرى: لماذا لم يهتم أحد بإيقاظي من هذا الإغماء؟ إني مريض وقد فقدت وعيي رغمًا عني. هل وصلنا إلى هذا الحد الذي لا يهتم فيه أحد بالآخر؟ هل تجاهلنا عاداتنا الحميدة؟

حاول النهوض بنفسه، وكان يتعكز على حائط ما. توجه نحو المقهى، نخطت قدماه المتعرجتان، وصل إلى هناك، سحب كرسياً وجلس وهو ينظر للناس حوله بذهول، على يمينه كان هناك رجل وسيدة يرتكبان فعلًا فاضحًا. ماذا هناك؟ هل تبدلت الطباع والأحوال بين عشية وضحاها؟ أم أنه، يا ترى، مكث مكوث أصحاب الكهف؟

لم يجبه أحد سوى عامل المقهى، وقد أجاب سؤاله بسؤال آخر: "ماذا ستشرب؟" طلب الماء، فأتى إليه بزجاجة من الخمر الأحمر. "ما هذا؟ أريد الماء. هل هذا هو الماء؟!"

"أجل، هذا هو الماء"، وشوّح بسيجارة المخدرات الملفوفة بيده: "وهذا هو الهواء."

قام من كرسيه وقرر الرحيل، ولكن العامل دفعه بيده وأعاده للجلوس: "قبل أن تذهب، عليك أن تدفع الحساب."

وهو يفتش نفسه بحثًا عن المال، طرح السؤال: "وكم الحساب؟"

"نقبل الدماء لا المال."

تمت

البعد المستبعد

أين أنا، وكيف جئت إلى هنا، وما هذا المكان؟، وماذا.......

اعتصر عقلي العشرات من الأسئلة الملحة، وألم لا يحتمل يزيد الطين بلةً، فتحت فمي صارخًا بكل ما أوتيت من قوة، عسى الصرخة أن تخفف من حدة الألم الذي تمركز كله في مقدمة رأسي حتى كادت أن تنفجر.

لم تجذب صرخاتي أي نفس، فلا أحد بالمرة حولي، فراغ لا يشغل حيزه سوى شمس حارقة فوقي، وقدماي تركض رغماً عني، علها تقطع ممر الجمرات المشتعل المتمثل في الرمال السوداء الساخنة أسفلي والممتدة بالجهات الأربع على طول نظري، كنت عاري الجسد تمامًا، لا شيء يستر عورتي، والحرارة تتزايد تدريجيًا، وقطرات العرق تتساقط من كامل مسام جسدي، والأسئلة تتزايد، ودموعي تتساقط، والألم يتصاعد، ولم أعد أستطيع الاحتمال، نخرَّ جسدي وغاب وعيي.

استيقظت إثر هذا الكابوس لاهثًا، وفركت عيني، ناظراً يمينًا ويسارًا بسرعة خاطفة متفحصًا، وحمدت خالقي أنني في بيتي وعلى فراشي، وحركت شفاهي معذبلاً، واستجرت من الجحيم داعيًا.

بدأت أهدأ وانتظمت أنفاسي، ومددت يدي بجواري والتقطت هاتفي، ونظرت للساعة لأجدها الحادية عشرة ظهراً، ضممت شفتي بامتعاض وأخرجت زفيرًا من فمي، وضغطت بضع ضغطات على شاشة الهاتف ووضعته على أذني، لحظات وأتاني صوت غاضب من الجانب الآخر قائلاً:

لماذا لم تخبرني باكرًا أنك لن تأتي اليوم؟

باعدت الهاتف عن أذني قليلاً وقلت بنبرة آسفة:

اعذريني يا (إيمان)، لقد مرضت البارحة ولم أستطع أن أحرك ساكنًا، وسآتي غدًا بالميعاد، أعدك بذلك وأرجو ألا تكوني غاضبة.

سحبت نفسًا عميقًا وكانت تستعد للهجوم واستطردت قائلة:

أنت تعلم يا (خضر) أنني غفرت لك سابقًا وعلى أعذار واهية كهذه أيضًا، ولكنك لا تبالي بالعمل، هذا واضح جدًا، أرج... أرجوك لا تحاول أن تقاطعني، لقد طفح كيلي منك ومن أعذارك، وكانت هذه المرة الأخيرة لك، لقد قمت بإرسال مذكرة إلى مختص الموارد البشرية وقد أوضحت بها كل ما أتاني منك طوال الفترة الماضية التي عملت بها معي، أرجو إن كان هناك شيء تريد أن تتحقق منه أن تعود إليه هو مباشرة، فأنا لم أعد مديرتك بعد الآن.

رفعت الهاتف عن أذني بعدما أنهت الاتصال من جانبها، واعتلى شفتي بعض السباب الموجه إليها، والتقطت كيسًا أخضر اللون بجانبي، وأفرغت بعضًا من محتواه بعلبة صفيحيه مخصصة لهذا الغرض ووضعت ورقة صغيرة بعدما لعقتها بلساني ذهابًا وإيابًا، وازددت أسطوانة في غاية الصغر من الفلين وضغطت على العلبة بيد واحدة وبالأخرى التقطت لفافة التبغ ووضعتها في فمي وأنا أنهض من الفراش.

عبرت باب الغرفة المفتوح أمامي، ودلفت للمطبخ وأشعلت إحدى عيون الموقد ودنوت برأسي من ناره المشتعلة بطرف لفافتي ونفخت الدخان وأنا أنتشل ركوة كانت معلقة فوق حوض المياه، ملأتها منه، ووضعتها فوق دائرة النار، وأفرغت فيها ملعقتين من القهوة وأضفت لها بعض حبيبات السكر، وتركت الملعقة بالركوة وخرجت للشرفة.

لملمت الملابس التي تراصت على سور البلكون ودخلت ملقيًا إياها على الأريكة ودخان لفافتي يتصاعد إلى عيني فتركتها تسقط أرضًا مشتعلة ولمستها بطرف قدمي بضع مرات حتى انطفأت نارها.

عدت للمطبخ مرة أخرى بعدها وقلبت محتوى الركوة ولعقت الملعقة وألقيتها بالحوض، وأخذت كوبًا صغيرًا وقلبته ليواجه بفوهته البخار المتصاعد حتى تندى قليلاً وأخذت حرارته تتعادل تدريجيًا مع حرارة القهوة، وصببت به قهوتي بعدما نضجت، وأغلقت الموقد جيدًا وأنا أتذكر أمي وتوجيهها.

ابتسمت وأنا أعود بذاكرتي للوراء قليلاً، حينما كانت تلقنني بعض الدروس وتوصيني أن أكون حريصًا، كانت دائمًا ما تذكرني بالصلاة والابتعاد عن الموبقات وأصدقاء السوء.

حضر إلى بالي (صالح) ذلك الصديق السوء بكل ما يحمله السوء من معنى، هو السبب الحقيقي وراء عدم استيقاظي بميعادي اليوم، فقد كنت معه البارحة حتى وقت متأخر، وهو أيضًا السبب في الألم الذي يغمر رأسي الآن، فقد أصر أن أسهر معه سهرة لا تُنسى كما نعتها.

وقد بدأت تلك السهرة بعدما ابتاع بعض المخدرات وزجاجة من الخمر، وصعدنا بهما إلى بيته، وقد أجرى مكالمة هاتفية بعد وصولنا، ودُق بابه بعدها بقليل وأتتنا (سحر)، نظر للخارج لحظات ليتأكد من خلو الممر، وأدخلها وأغلق باب الشقة.

كانت (سحر) ذات جمال أخاذ، نظرت لي في البداية بنظرات قلقة، وتبادلت النظرات بيني وبين (صالح) الذي بادلها نظرات مطمئنة، وقال وهو يشيح بيده باتجاهي:

هذا صديقي (خضر)، واليوم هو يوم ميلاده وقد آثرت أن يكون يومًا لا يُنسى، ولا يمكن أن يكون في طي النسيان بوجودك معنا.

ابتسمت ابتسامة مشرقة وهي تضحك ضحكة خليعة، وقالت لي:

كل عام وأنت بخير يا (خضر).

تلجلجت قليلاً وأنا أشكرها على مجاملتها، ونظرت لـ(صالح) معاتبًا إياه، ولكنه كان مشغولاً بتجهيز سفرته استعداداً لبدء السهرة الموحلة.

وضع ثلاثة أقداح فارغة، وصب بهم بعض الخمر، وناولها خاصتها بعدما ارتشف بعضًا من محتواه، ومد يده لي بأحدهم ولكني هززت رأسي رافضًا، وقلت له:

إنك تعلم أني لا أشرب.

ولكن اليوم يوم مميز، لا ترد يدي، وثم إن هناك مرة أولى لكل شيء، تذوقه فقط وإن لم يعجبك اتركه ولن ألومك.

أنهى (صالح) جملته، وقد اعتراني التردد، فمسكت بالقدح حتى لا أحرجه ولكني لم أرفعه إلى فمي، كما فعل هو و(سحر)، واجترعا محتوى الأقداح دفعة واحدة.

قامت (سحر) بقدم واثقة واتجهت إلى التلفاز، وأخذت بجهاز التحكم تقلب بين المحطات حتى استقرت على إحداها، ورفعت مستوى الصوت قليلاً وهي تمايل على النغمات المنبعثة منه.

قام (صالح) من مجلسه وأخذ يقوم بحركات عبثية بيده، بعدما أنهى لف سيجارته غير الشرعية، ورقص معها قليلاً، وقال لي وهو يناولها السيجارة ويتجهان سويًا إلى غرفة نومه وابتسامة خبيثة على وجهه:

سنتغيب عنك قليلاً، أريدك أن تستعد ريثما يأتي دورك.

ما الذي وضعت نفسي به، لماذا طاوعته وأتيت معه إلى هنا، آه لو علم أبي الشيخ (محمد) أين ابنه الآن لأقام عليَ الحد بلا شك.

فقد نشأت بعائلة متوسطة بإحدى القرى، عائلة إسلامية ملتزمة جدًا بتعاليم الدين، كنت الابن الأكبر لأبي الذي أسماني (خضر) تيمنًا باسم أبيه الذي وبدوره أسماه (محمد) على اسم أبيه، ليكون اسمي الرباعي كما هو ببطاقة الهوية (خضر محمد خضر محمد خضر).

أسخر دائمًا من اسمي الذي هو تكرار من (الخضر) و(المحمد)، الذي يتشابه مع لغة الإله بهذا التكرار، باختلاف أنها بالصفر والواحد.

تخرجت من كلية التجارة لا أفقه شيئًا مما درست، كما هو الحال مع جميع الشباب، وعندما غلبني اليأس من بلوغ وظيفة مناسبة بمحافظتي، انتقلت وحيدًا إلى هنا، بعدما تحصلت على وظيفة بمجال خدمة العملاء، بإحدى شركات مزودات خدمة الإنترنت المنزلي.

واستأجرت شقة صغيرة قريبة من مقر العمل، مكونة من غرفة وصالة وحمام ومطبخ، بعدما تركت أخرى واسعة مع بعض من زملائي الموظفين، وبعد بضعة شهور من ارتيادي للعمل، كرهت روتين حياتي الممل، وسعيت أن أكتسب بضع الصداقات، ولكني لم أظفر سوى بـ(صالح)، حيث جمع بيننا بعض الهوايات المشتركة، وكانت ظروفنا متشابهة إلى حد كبير، فهو الآخر يقيم هنا لأجل العمل.

توطدت علاقتنا مع مرور الأيام، وصار هو صديقي الوحيد، وهذه هي المرة الأولى التي أوافق فيها على السهر معه، خرج هو من الغرفة قاطعًا شرودي، وقال وهو يرتدي بعضًا من ثيابه التي خلعها بالداخل وهو ينظر للكوب الممتلئ بالخمر أمامي:

أما زلت لم تستعد بعد؟

لم أعلم بما أجيبه ولم ينتظر هو ردًا مني، وأحنى ظهره والتقط من على الطاولة قطعة من الحشيش، وأشعلها على عقب سيجارة قطمها وأخرج محتواها براحة يده، حتى فاحت رائحتها، ووضعها كمكون إضافي للتبغ وأخذ يفركهما سويًا، وهو يشير لي بعينه إلى دفتر الورق، فناولته وريقة منه، وفي حركة سريعة كانت هناك سيجارة جاهزة بين إصبعيه أشعلها ونفث دخانها بوجهي، وأصر أن آخذها منه.

كانت تلك المرة الأولى بحياتي التي أذوق بها هذا المخدر، لم أعلم لِمَ طاوعته، ولكني لم أبالِ كثيرًا، فما الذي سيختلف بين سيجارة فارغة وأخرى محشوة.

سحبت بعض الأنفاس المتتابعة منها، ولم أشعر بأي تأثير ملحوظ، حتى وصلت إلى منتصف السيجارة، بدأت دقات قلبي في التسارع، وجف حلقي تمامًا، وطلبت منه بعض الماء، فأشار مبتسمًا لكوب الخمر أمامي، وما الضير في كوب واحد؟ هكذا سولت لي نفسي تجرعته وأنا أشعر بمرارته، ووضعته فأعاد ملأه بالخمر مرة أخرى.

كأس تلو الآخر، متوازيًا مع السيجارة المشتعلة التي قاربت على الانتهاء، وبدأت أسمع بعض الأصوات داخل رأسي، لم أفقهها في البداية ثم بدأ الصوت يتضح تدريجيًا قائلاً:

أهلاً بعبدي الجديد، تقدم فلم يعد هناك مجال للعودة، أنت الآن ملكي، ولا مجال للهرب، لم أجبرك أن تأتي، فلقد جئت بمحض إرادتك.

انتفض جسدي في رعب، وسقط الكأس من يدي، وأغمضت عيني، لم أعلم لكم من الوقت غبت عن الوعي.

استيقظت وأخبرني (صالح) بقلقه علي، وسألني إذا ما كنتُ بخير، فهززت رأسي إيجابًا، وقمت متجهًا لباب الشقة، وهممت بالرحيل حتى بعدما أصر على أن أبيت

معه، أو حتى آخذ دوري مع (سحر) التي تنتظرني منذ مدة بالغرفة، ولكني اعتذرت له متحججًا بعملي وغادرت.

تذكرت الآن سبب رحيلي، وربطت بينه وبين الحلم الذي أيقظني منذ قليل، بعدما شربت عند (صالح) بالأمس، وبعد سماعي هذا الصوت الغريب بداخل رأسي، أغمضت عيني مرغمًا، ورأيت نفسي أسير في صحراء جرداء لا زرع بها ولا ماء، وقد عبرت إحدى البوابات، التي كانت شفافة كما الهواء، ووجدت نفسي أركع لذلك الكيان الغريب، الذي كان يجلس على ذلك العرش باسمًا، تبينت ملامحه بعدما اقتربتُ منه، كان فارع الطول ورأسه المدقق الصغير لا يتناسب بتاتًا مع ضخامة جسده، وقرونه كغزال، لكنها كانت متشعبة للأعلى والأسفل، لم أتبين له أي أطراف في البداية، حتى لامس مقدمة رأسي بإحدى أصابعه، حينها اتضح كل شيء.

أمسكت هاتفي، وطلبت رقم (صالح)، لم يجبني من المرة الأولى، فعاودت الاتصال أكثر من مرة حتى أتاني صوته وكان فيما يبدو نائمًا، أخبرته أني بحاجة إليه في أمر عاجل لا يحتمل التأجيل، طلب مني أن أمر عليه بمنزله، التقطت بعضًا من الثياب التي كنت قد وضعتها على الأريكة، وأخذت حاجاتي بعدما ارتديت ملابسي ونزلت من المنزل باتجاه بيت (صالح)، الذي لم يكن يبعد عني، سوى ببضع شوارع، لامست السلم، وطرت إلى بابه.

سألته بعدما دخلت إذا ما تبقى منه بعض الخمر من البارحة، أشار للزجاجة الفارغة أمامه، وللقطة من الحشيش بجانبها، التقطت قطعة الحشيش ودفتر الورق، وطلبت منه مفتاح سيارته، ووعدته أن أعود بها قبل ميعاد ذهابه إلى العمل، قبل طلبي متعجبًا، ولكنه بكل الأحوال يثق بي، لذلك لم يمانع، فلم أخبره بأي شيء فهو بكل الأحوال لن يصدقني.

ركبت السيارة وذهبت إلى المحل الذي ابتاع منه (صالح) الخمر البارحة، وطلبت زجاجة من نفس النوع، وفتحت تطبيق تحديد المواقع على هاتفي، بعدما عدت للسيارة.

نظرت إلى مؤشر الوقود بالسيارة، فوجدته بالمنتصف تقريبًا، مررت على محطة وقود، دخلتها وملأت الخزان وتابعت طريقي إلى مهمتي، كنت أقود بسرعة جنونية، غير مبالٍ بقواعد المرور، كدت أن أصطدم بضع مرات، ولكن الحظ كان حليفي.

رن جرس هاتفي كثيرًا وأنا بالطريق، ولكني لم أبالِ باتصال (صالح) المتكرر فهو السبب الأساسي بما أنا بصدده الآن، مرت الآن ثلاث ساعات وأنا ما زلت على طريق الواحات، اتخذت بعده طريق الواحات البحرية، حتى اقتربت كثيرًا من وجهتي، الصحراء السوداء.

ترجلت من السيارة، بعدما لففت بصعوبة سيجارة الحشيش، وشربتها بالتوازي مع الخمر كما فعلت بالأمس تمامًا، أنهيت السيجارة، ونصف زجاجة الخمر، وأنا أسير هائمًا بتلك الصحراء، وقد بدأ الليل يدخل علي، ولكني لم أكن خائفًا رغم اختفاء كل شيء من حولي، حتى أني لم أعد أرى السيارة، كنت وحيدًا تمامًا، لا أحد حولي على الإطلاق، كما كنت بالحلم، باختلاف أني لست عاريًا، وبيدي زجاجة الخمر.

سمعت صوتًا برأسي، لم يكن الصوت غريبًا عني، كأنما هو صوت أفكاري، وقال لي:

اترك لي دفة القيادة، سأوصلك إلى الآن.

شعرت بدوار حاد بعدما رفعت زجاجة الخمر، وشربت محتواها دفعة واحدة، وأنا أعبر ذلك الباب الشفاف وغاب وعيي.

استيقظت واستقام جذعي ونظرت حولي لأجد نفسي محاطًا عن يميني ويساري، بالعديد من الأكواخ لونها أبيض، يسكنها بشر أجسادهم نحيلة جدًا، كأنما هم جلود على عظام، كانوا كلهم عرايا تمامًا، محبوسين في تلك الأكواخ، ورغم أنها من الخوص إلا أن ضعفهم منعهم من اختراقها، كان (صالح) من بينهم و(سحر) وكان هناك شبيه لي من ضمنهم، يقفون جميعًا منحنين للأمام، وذراعهم مدلاة بجانبهم.

كانوا يتحدثون من حولي، ولكن تَرَدُد سمعي لم يكن متوافقًا مع كلامهم، لغتهم أشبه بالتحدث أسفل الماء، أتاني ذلك الصوت مرة أخرى فنظرت إلى مصدره، شبيهي بذلك الكوخ، وقال لي إنهم يطلبون مساعدتي بتحريرهم من قبضة هذا الكيان الذي يسيطر عليهم، ويتغذى من طاقتهم.

قمت من مجلسي، والتفت مئة وثمانين درجة، كان ذلك الكيان يجلس على العرش أمامي، والعديد من الخيوط السوداء تربط بينه وبين أشباه البشر.

رفع يديه إلى الأعلى مشيرًا باتجاهي، ففتحت تلك السجون ووجدتني أحاط تدريجيًا بهؤلاء الاشباه الذين يضيقون عليَ الخناق، مكونين نصف دائرة حولي، مانعين أي مجال للهرب.

ترجل من عرشه باتجاهي، وقال:

غير مرحب بالبشر في بُعدي.

استجمعت قواي وقلت له:

حررهم وسوف أرحل من هنا.

ومن قال لك أنك ستستطيع الرحيل؟

دب الرعب في قلبي، فأكمل قائلاً:

لم أجبر أحدًا على القدوم، ولكن لا بد من دفع الثمن، شبيهك هذا ليس سوى نسخة من وعيك، كما هم جميع من هنا، كلكم بمحض إرادتكم الحرة أقدمتم على الشراب، وهذا هو الثمن الذي تدفعونه مقابل هذا الفعل.

جاءني صوت وعيي مرة أخرى، وأخبرني أن السبيل الوحيد لتحريره هو بقطع هذا الخيط الذي يربطه بذلك الكيان الذي اقترب مني.

لم أعلم كيف أفعل هذا، ولم تكن هناك فرصة سانحة كي أفكر، فاندفعت بسرعة باتجاهه ولكنه تصدى لي بدفعة من يده أسقطتني أرضًا، وهو يختال بقوته، مددت يداي من خلفي وأنا أزحف عائدًا وأمسكت بإحدى تلك الخيوط وصرت أجذبها بكلتا يداي حتى طاوعتني وتبخرت كما الهواء هي ومن يرتبط جسده بها، فتقلص حجم جسده قليلاً وبان عليه الضعف، وهمَّ يسحبني من قدماي وقد كنت أمسك بأقصى عدد كبير من تلك الخيوط، فتمزقت إثر سحبته العنيفة لي.

خرَّ أرضًا وهو يصرخ بغضب، وأمسكني وهو يلوح بي في الهواء وألقاني أرضًا، أحسست بألم عظيم وصوت عظامي تهشم، ورؤية ضبابية له وهو يقترب مني ووضع قدمه فوق رأسي بغلٍ، وهو يقول: مـ........

تمت

سكون

في لحظة ما غير محددة، نظر إلى ساعتهُ المعلقة على الحائط بمنزله. علق نظره عليها بضع ثوانٍ، قبل أن يقوم ليبحث بأحد الأدراج عن بعض البطاريات.

التقط الساعة، وأجرى عملية التبديل ولكن بلا فائدة تذكر، فعقاربها ما زالت ساكنة، لا تلدغ كما اعتادت أن تفعل.

انتزع البطاريات وأعاد تركيبها بعدما داعبها بأسنانه وأيضًا لم يفلح في أن يحرك ساكنها.

ترك الساعة وذهب إلى إحدى الغرف، وبينما هو يلتقط مفك البراغي منها، إذ بالساعة الموضوعة على الكوميدينو أيضًا لا تتحرك، فتحرك هو باتجاهها متجهمًا. التقطها. أعطاها بضع طرقات على ظهرها لكنها لم تقشط له ثانية واحدة حتى.

تعجب. وقف لحظات يتفكر. ذهب إلى أحد الأدراج بالخارج، انتشل منها ساعته اليدوية.

مد لها إصبعيه وأخذ يملأ زنبورها ولكنها أيضًا لم تتحرك.

تحرك ليفتح باب منزله، ولكنه ارتد إلى الداخل لهول ما رآه.

لم يجد شيئاً بالخارج، لا شيء على الإطلاق، كأنما هو داخل بيت يطفو في فضاء يخلو من الكواكب والنجوم.

أغلق الباب، تحرك إلى النافذة، أزاح ستائرها، استكان يحملق إلى زجاجها بمشاعر متضاربة وجسد ساكن، تراجع بضع خطوات للخلف ليحط بجسده على الأريكة ليواجه النافذة. جلس يتفكر قليلاً، ثم قام إلى الباب مرة أخرى، وفتحه.

مد يده اليسرى يتحسس طريقه للخارج بحذر، أخذ خطوته الثانية بقدمه اليمنى، استقرت ساقه طافية في الفراغ، حرك ساقه اليسرى إلى الفراغ ولكنه كاد يسقط لولا أن يده اليمنى تمسكت بطرف الباب، عاد إلى الأريكة تاركاً الباب مفتوحاً من خلفه.

لم يجلس كثيراً حتى قام مرة أخرى للباب، تراجع سبع خطوات قبل فتحة الخروج، رفع ساقه اليسرى، وأخذ يحجل باليمنى حتى خطا أول خطوة خارج المنزل، قفزة أخرى، ثم قفزة أخرى، ابتسم، لف على قدمه اليمنى ليواجه المنزل، أخذ يقفز حوله حتى وصل إلى النافذة، لامس زجاجها بيده اليمنى، ثم شعر أن قدمه بحاجة للراحة.

التف في مكانه باتجاه الباب ثم قفز خطوة للأمام، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، ثم أخرى، تعلق ليلتقط أنفاسه، ثم عاد ليقفز أربع خطوات دفعة واحدة.

اختل توازنه وهو يهم بخطوته الأخيرة فاستعان بقدمه اليسرى لا إرادياً، فغاصت وهو معها.

لم يبقَ صوت صراخه مدوياً ولا لحظة بعد سقوطه.

تمت

الفرخ الصغير

مرحباً، أود أن أعرفكم بنفسي، ولكني لم أحظَ باسم بعد، حتى إنني لم أصل إلى هذه الدنيا حتى الآن، ولكني أراكم بعينيها، ولا أعلم هل تسمعونني الآن أم لا، ولكن بداخلي رغبة في أن أحدثكم وأرجو أن تكونوا تسمعونني.

أتعلمون أنها هنا الآن من أجلي، هي تجلس وتنتظر دورها أن يأتي، حتى يفحصني الطبيب، إنني أشعر بما هي تشعر به، هل تشعرون بهن أنتم كذلك؟ هل هم أيضاً جاؤوا الآن لنفس السبب الذي جئنا من أجله، هل أنتم أيضاً تتحدثون إلى مَن وراء بطونهن المنتفخة ولكني لا أسمعكم أم أنتم تسمعون حديثي ولكنكم لا تريدون التحدث كما أفعل أنا؟

عندما بدأتُ أرى بعينيها للمرة الأولى، كانت واقفة أمام سطح عاكس، وقد علقت عينيها بي وأخذت تحسسني من وراء بطنها المنتفخ، كنتُ ما زلت قطعة صغيرة بداخلها، ولكنها أشعرتني بكوني شيئاً كبيراً جداً بالنسبة إليها.

قالت لي: (أنا أمك)، ويداها ما زالتا بقربي، وأكملت: (أنت ابني، أنا وحدي). رأيت في عينيها الشجاعة، كانت محدقة للمرآة وكأنها تعلم بأني أراها من خلال عينيها.

كانتا بنيتي اللون، تسرني رؤياهما، وابتسامتها البيضاء تبث لقلبي الراحة. كانت تشعر بي، فتطمئنني عندما أكون خائفاً، وتلامسني، وأنا الآخر كنت أبادلها تلك اللمسات، ولكني لستُ على يقين هل تشعر هي بيدي رغم وجود بطنها حائلاً بيني وبينها؟ أشعر أنها تفعل.

أنا على وشك أن أخرج من بطنها، هكذا أخبرتني قبل بضعة أيام. دائماً ما أود مبادلتها الحديث وقريباً سأحظى بهذا، حيث قالت لي إنني سيكون لي جسدي الخاص،

وبه عينان وفم وأذنان أيضاً، سأرى وأسمع وأتكلم، سأكون قادراً حينها أن أبادلها الحديث، وأخبرها كم أنا فخور بكونها أمي.

أذكر منذ فترة، كيف كانت حالتها النفسية سيئة، وعندما سعيت لتقصي السبب، اكتشفت ما حصل لها قبل مجيئي إلى بطنها، لقد كانت تعاني الأمرين مع رجل ما، كان يأتيها بكوابيسها يوماً بعد يوم، وكان مواظباً على قدومه إليها، كنت أراه في حلمها، ولكني لم أكن قادراً على منعه، على تلجيمه كما كان يفعل بها، كانت هي تهرب منه، ولكنها كانت محاولات فاشلة.

كان يمسك بها سريعاً، ويجرها جراً إلى الغرفة، ويصعد بها إلى السرير، وهو يضحك منتصراً، بينما كانت هي خائفة تبكي، ثم تطفأ الأضواء، وتستيقظ أمي صارخة، وتظل تبكي بعدها، ويستمر بكاؤها لأيام طويلة، حتى علمت بوجودي في حياتها، فخففتُ عليها، وسُرّت وتشجعت بوجودي.

منذ مدة رأيتها تتخلص من بعض الأشياء التي كانت توجد بغرفتها، ذلك الثوب الأبيض الذي كانت ترتديه بالصورة المعلقة على الحائط، أخذت تمزقه إرباً وأنزلت تلك الصورة أيضاً التي تضم شخصاً آخر يرتدي الأسود، وأشعلت فيهما النيران، ووقفت تشاهدها حتى تحولت إلى رماد.

لقد كان الرجل بتلك الصورة هو نفسه الوحش المخيف الذي كان يطاردها في تلك الأحلام، علمت فيما بعد، بأن ذلك الرجل الكهل قد مات قبل أن أتم شهري الثالث في بطنها.

أتذكر أحد الأحلام التي رأيته بها، تكرر هذا الحلم كثيراً لأيام طوال، باختلاف بعض التفاصيل، رأيته تارة يأخذ نصلاً حاداً من يدي أمي، ويرميه بعيداً وينهال عليها ضرباً، حتى تسقط مغشياً عليها، وتارة ينزلها من أعلى سطح بالمنزل، وأخرى من على

كرسي تعلوه دائرة قماشية معلقة، ومرة أخرى يأخذ منها إحدى العلب التي تحوي شيئاً ما، دائماً ما ينتهي هذا الحلم بضربها، وتتساقط قطرات الدم من جرح صنعه برأسها، أو من إحدى فتحتي أنفها أو كليهما، وأحياناً بسماعي لصوت عظامها وهو يكسر.

ولكن بعدما علمت بوجودي، لم يشغلها أي من هذا، وأخذت تهتم بنفسها من أجلي أنا، وأصبحت تتردد بانتظام إلى هذا المكان.

هي تحبني، وأنا أحبها، أسعى للخروج حتى أخبرها بنفسي، وأرى الفرحة في عينيها، رؤية مباشرة وليس أمام المرآة، أريد أن أراها بعينيّ أنا.

أعذروني الآن على الذهاب، فقد أشارت لها تلك السيدة التي تجلس على المكتب هناك، ها هي أمي تقف رويداً رويداً، وتتجه إلى تلك السيدة، التي تخبرها الآن، أن تدخل للطبيب الذي ينتظرها بالداخل.

تمت

الوقت

نظرتُ إلى الساعة المعلقة على حائط منزلي، لكنها كانت ساكنة لا تدق. عقاربها تشير إلى زمنٍ ثابت، كأنها ترفض الاعتراف بأن اللحظة قد مرت. شعرتُ بقلقٍ يتسرب إلى داخلي، بحثتُ في أرجاء منزلي عن شيءٍ أستدل به على الوقت. لا صوت يُسمع، لا جهاز يعمل. خرجتُ إلى الشارع أسأل المارة عن الوقت، لكن وجوههم كانت تحمل نفس الحيرة. ترددت الإجابة بين صمتٍ مطبق وكلماتٍ متفرقة: "الوقت توقف... ولا سبيل لعودته."

ذهبتُ إلى مسجدٍ في آخر الشارع، علني أعلم منه كم الساعة الآن. استوقفني شيءٌ غريب وأنا في طريقي إليه؛ نظرتُ بذهولٍ إلى السماء، كانت الشمس والقمر والنجوم والسحاب مجتمعين! قلتُ بذهول: "بالله عليك يا شيخ، كيف هذا؟ هل أصابني الجنون؟"

رد شيخ المسجد: "الوقت قد توقف، ولا سبيل للرجوع. لن يمر بعد الآن ليلٌ أو نهار. نحن الآن في الفراغ المطلق سائرون."

رددتُ عليه: "كيف نعلم أوقات الصلاة والصوم؟ كيف ندرك في أي يومٍ نكون؟"

تركني وغادر، لم يجب سؤالي.

كم من الوقت مضى؟ لا أحد من الناس يبالي. نفرتُ من مكاني وسرتُ أسأل كالمجنون: "كم الوقت؟ في أي يومٍ نكون؟" رأيتُ من يسأل نفس سؤالي. اجتمعنا، لعل الاجتماع يساعدنا، سألنا كل من قابلنا، ولم نلقَ سوى هذا الرد دائمًا: "الوقت توقف."

أثناء رحلتنا، لقينا درويشًا شاردًا يقول: "مات الحق وكثر المجون." ومن خلفه كان هناك أطفالٌ يرشقونه بالحجارة والرمال. دافعنا عنه سويًا، ففي الكثرة تكون الشجاعة. سألناه: "ماذا حصل؟" وسألنا أنفسنا: "لماذا آل بنا الحال إلى هذا؟"

قال، وكأنه يخبر نفسه أكثر مما يخبرنا: "لقد كُسر آخرُ مصباحٍ مضيء، ولن يعود الوقت ليعمل من جديد، حتى نصل إلى الفاعل ونبيده."

سألناه: "ماذا نبيد؟" لكنه صمت تمامًا ولم يعد. تركناه وذهبنا، لكننا كنا بحاجة إلى الإجابة.

مات الوقت.

"لا، لم يمت!"

انقسمنا بين مؤيدٍ ومعارض. أدركنا أن الوقت ما زال يمر، ولكنهم كانوا لنا بالمرصاد. قبضوا علينا ووضعونا في السجن.

"ولماذا هذا؟"

كانت الإجابة: "لأنكم لا تصدقون. أنتم قلة، ونحن كثيرون."

في السجن عُذبنا، وقال لنا السجان: "مات الوقت أيها المجنونان."

واجهناه بقوة: "لا، لم يمت."

"بل مات! وإن لم تضعوا ألسنتكم في أفواهكم وتتحلوا بالصمت والسكون، فسوف تموتون."

"هل كل من هنا مجنون؟"

ندرك أن الوقت يمر، ولكنهم لم يكونوا مقتنعين، وعلى رأيهم الخاطئ كانوا مصرين. مكثنا في السجن مدةً طويلة، فلا سبيل للخروج إلا بالخنوع. وهناك من اثنى عن إيمانه بأن الوقت ما زال موجودًا.

حاورته لعلي أرجعه إلى الصواب، لكنه رد: "إن ظللتُ هنا سأموت، كما مات الوقت... هكذا يقولون."

قلتُ له: "لا تستمع إليهم، الوقت ما زال يمر وموجود."

لكن جهودي ضاعت، فكان قراره الخروج. منذ خروجه انقسمنا، لم نعد سويًا كما كنا. مر الوقت هكذا أعلم، وخرج الكثير وبقي القليل منا.

هل ينتصر الباطل علينا؟

خطبتُ فيهم: "أيها الأصدقاء، علينا توحيد الجهود، فالوقت كما تؤمنون لم يتوقف ولم يمت، وما زال موجودًا."

شعرتُ بالانتصار وهم الآن متأثرون. قام أحدنا وقال: "إن القلب يدق، وتتشابه دقاته مع دقات الساعات التي اختفت من هذا الوجود."

أدركتُ شيئًا جادًا آنذاك، قلتُ: "يا أصدقائي، استمعوا جيدًا، سنستعيض عن دقات الساعة بدقات القلوب. سنكون نحن، مجتمعين، معلمي الوقت لكل الوجود."

طلبتُ منهم أن يكونوا بأجسادهم سلمًا، فتسلقتُ وصولًا إلى النافذة في الأعلى، صرتُ أصيح:

"يا جنود، يا جنود! الوقت بداخلنا ما زال موجودًا، ولن يموت ما دامت القلوب تنبض."

وضعتُ يدي على صدري، وصرتُ أرهف السمع. مرت ثانية، اثنتان، ثلاث... دقيقة كاملة... ساعة... يوم... شهر... عام... عامان... ثلاثة... قرن.

ولن أموت.

أنا الوقت. أمرُّ، وما زال لي وجود.

تمت